كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

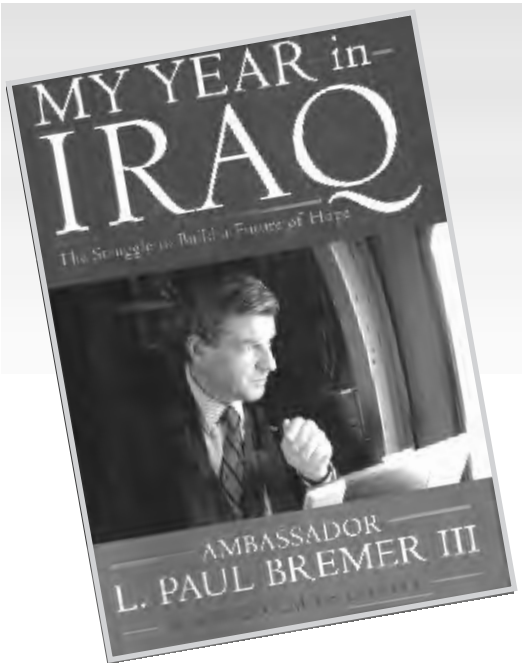

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة السابعة)

" أعدكم بأنّ الحالة الأمنية ستتحسّن. الآلاف من رجال الشرطة الأمريكيين ، المدرّبين جيداً ، سيصلون في غضون أيام. ما مشاكلكم الأخرى؟" سألتُ ، متوجّهاً ثانيةً إلى المدير.

بسطَ يديه مرة أخرى. "سيارات الإسعاف لدينا لا يمكنها الحصول على البنزين بسبب النقص الحالي. نحتاج إلى مازوت لتشغيل مولّدنا، الذي لا يعمل بشكل مناسب. لقد أخّرنا إصلاحات ملحّة، حتى قبل قيام الحرب بوقت طويل. نحن نفتقر لمعونات وتجهيزات طبية أساسية ...أمصال، أنابيب تقطير، ضمادات ... وبعض المضادّات الحيوية. نعمل من دون راحة منذ آذار، ولن نتوقّف. لكننا بالتأكيد نحتاج للمساعدة."

كان (مكتب إعادة الإعمار) يملك احتياطياً من المعدّات الطبية في الكويت، وهي مخصّصة لمعسكرات النازحين، التي لم تدعوهم الحاجة لبنائها. كنتُ متأكداً أنّ بمقدوري أن أحصل على بعض البنزين ووقود الديزل من ديفيد مكيرنان، والقيادة المركزية. لن يساعد هذا فقط المستشفى وطاقمها، الذي يقوم بعمل بطولي، بل سوف يعزّز الثقة والنية الحسنة، تجاه التحالف، فالخيار الأخلاقي الوحيد هو مدّ يد المساعدة لهم.

"سوف أرسلُ خبراءنا حالاً ليقوموا بإصلاح المشكلة في المولّد. قدّم لي قائمةً من فضلك، ...قائمة كاملة ومفصّلة عن احتياجاتك الأخرى." قلتُ. "سوف نقوم بكل شيء ممكن."

ابتسم المدير، معبراً عن امتنانه، لكنه عادَ وفرقعَ أصابعه ثانيةً. "رواتبنا ... النقود التي نتقاضاها، لم يصلنا شيء منذ شهرين تقريباً. سعادة السفير، أجرُنا متدنٍ. وحين لا نملك شيئاً، تكونُ الحياة مستحيلة. جميعنا هنا نعيل عائلات كبيرة، آباء، أعمام، أولاد عمّ. ... والكثير من الأطفال."

أومأتُ بلطف لأوفّر على هذا الرّجل الطيب إهانةَ التسوّل. "نأملُ أن نعلن قريباً دفعَ كل الرّواتب السابقة، لكلّ موظف مدني في العراق، ووزارة الصّحة هي إحدى أولوياتنا الرئيسية." موجةٌ ظاهرةٌ من الرّاحة علَت وجوههم.

الآن، قلتُ في نفسي، علينا أن ننفّذَ وعودنا.

وقمتُ بعدئذ بجولة في أرجاء المستشفى. كنتُ قد حضّرت نفسي لرؤية أطفال مرضى، ولكن لا شيء كان بإمكانه تهيئتي لرؤية صفوف من ذوي العاهات، والحاضنات المهشّمة. ولأنّ مولّد المستشفى لا يعمل إلا ليلاً، وعلى فترات متقطّعة لكي يوفّر الوقود، كان نظام التكييف عاطلاً عن العمل. الهواءُ خانقٌ وفاسد. أسراب الذباب تتجمّع عبر النوافذ المفتوحة، وتتسلّق القضبان المعدنية المخلّعة للأسرّة الصغيرة. أمهّات كئيبات، يتدثّرن في عباءاتهن السّود، كنّ يلوحن بخرقٍ أو بقطع من الورق المقوى، كي يبعدن الذبابَ عن وجوه أبنائهنّ.

الرائحة النتنة للإسهال أعادتني إلى خدمتي في أفغانستان وأفريقيا قبل خمسة وثلاثين عاماً. غير أنّ العراق كان يتمتّع بنظام صحّي معتبر قبل صدّام، وقد نهب البعثيون الثروة النفطية، وبذّروا مليارات الدولارات، أوّلاً على المذبحة الإيرانية-العراقية العقيمة في حقبة الثمانينيات، التي دامت ثماني سنوات، ومن ثمّ على غزو الكويت عام ١٩٩٠.

هذه المستشفى كانت في وضعٍ لا تُحسد عليه، حين بدأت عقوبات الأمم المتحدة تفعلُ فعلها في عام ١٩٩١. أرادت الدعاية البعثية الرسمية أن تصوّر بأنّ العقوبات كانت قد تسبّبت بحالات نقص تغذية واسعة الانتشار، وبوفيات مبكرة بين الأطفال العراقيين المحرومين. غير أنّ الجزء الأكبر من التدهور في الصحة حصل حين تعمّد النظام عدم تقديم الأدوية والتجهيزات الطبية، كما ينصّ برنامج النفط مقابل الغذاء، وحرف العائدات إلى عيادات مخصّصة لنخبة الحزب والحرس الجمهوري.

وقد أصاب نقص التغذية بشكل رئيسي الأطفال الشيعة، الفقراء، والذين عانت عائلاتهم من وطأة الاغتيالات والمذابح، التي كان ينفّذها جهاز مخابرات صدّام، إضافة إلى الحرس الجمهوري. غالِباً ما كانت العائلات الشيعية تُحرَم من بطاقات التموين الغذائية. وهذا ما أدّى بأطفالهم إلى التضور جوعاً ولاحقاً الموت. أولئك الذين عاشوا، وجدوا طريقهم إلى مستشفى مثل هذه، حيث تقوم عدسات الكاميرات العالمية بالتقاط مأساتهم، وعرضها في صور فيديو، "كأمثلة صارخة على سياسة العقوبات القاسية، التي ضلّت طريقها-" تماماً كما كان يخطّطُ صنّاعُ الدعاية البعثية. قبل أن أغادر واشنطن، كنتُ قد اطلعت على دراسة أعدّها البنك الدولي يقدّر فيها أنّ العراق الآن يعاني أقصر نسبة أعمار، وأعلى نسبة وفيات بين الأطفال، من أي بلدٍ آخر في المنطقة.

في جناح المواليد الجدد، انحنيتُ لأقرأ اللوحة النحاسية لماركة الحاضنة. لقد صُنعتْ في "ألمانيا الغربية" عام ١٩٦٢، قبل أربعين عاماً. الطفل داخل الحاضنة يرتدي "حفاظاً" من النسيج الرثّ. لستُ الزجاج المكسور. كانت الحرارة الشديدة الآتية من النافذة المفتوحة هي المصدر الوحيد للدفء. كانت الممرضات يزحنَ الحاضنات من الشّمس إلى الظل، في ابتكار لحظي لخلق توازن في الحرارة.

في الجناح التالي، توقفنا بالقرب من مهد طفلة ذابلة. كانت صغيرة الحجم جداً لدرجة أنني أيقنت بأنها ولدت قبل أوانها. لم تكن توجد امرأةٌ محجّبة قربها لتحرّك الهواءَ فوقها.

"لماذا لا تضعونها في حاضنة؟" سألتُ الطبيب المناوب، وهو شاب طويل القامة، بكتفين مائلتين، ولحية لم يحلقها منذ يومين.

"لأنها ليست من الولادات المبكّرة،" قالَ الدكتور. وألقى نظرة على سجلّ الطفلة. "الصغيرة خديجة، في الحقيقة، ...عمرها سبعة أشهر، إنها تعاني من سوء التغذية فحسب."

تمعّنتُ بأنبوب التغذية تحت أنفها المغطّى. بادلتني الطفلةُ النظرات، بعينين سيّالتين، لا ترمشان. كان عليّ أن أشيحَ بوجهي. هل هي يتيمة حرب، أم ضحية لقمع وسوء إدارة النظام البعثي؟ لم يكن هذا مهماً. مثل الملايين من العراقيين الآخرين، كانت تحتاج لمساعدة. إنّ رؤية هذه الطفلة المتألمة صعقتني حقاً: كنتُ مسؤولاً عنها، وعن الآلاف غيرها. إن امتلاكي صلاحية الحاكم المدني لم تكن تعني شيئاً إذا لم أستطع أن أجلب بعض التحسّن على حياة العراقيين العاديين. وقبل أن يفوت الأوان.

لاحقاً، في ذلك الصباح، صعدتُ، برفقة روبين رافايل، سيارة (شفروليت) مدرّعة، وتوجّهنا معاً إلى مكتب الأمم المتحدة، الكائن في فندق (القناة)، عبر النهر. كنتُ قد أعلمتُ الصحافة بالزيارة، وحظيت تلك الخطوة باهتمام كبير. لم يكن يضيرني ذلك، لأنني كنتُ أريد للأمم المتحدة أن تدفع فاتورة محصول القمح والشعير، بشكل أو بآخر.

وصلنا إلى مقرّ الأمم المتحدة، المسوّر بالجدران، حوالي العاشرة صباحاً. راميرو دا سيلفا، مسؤول الأمم المتحدة، من البرتغال، قابلنا في قاعة اجتماعات ضخمة، بحضور العديد من زملائه.

"نحتاج أموالاً لشراء محصول الحبوب الوطني،" أخبرتُ دا سيلفا. "السفيرة روبين سوف تشرح المسألة."

ما إن بدأت روبين باستعراض أبعاد الأزمة، حتى بدأ دا سيلفا وزملاؤه ينتقدون وجهة نظرها، وبلهجة توحي بأنهم لن يعطونا ديناراً واحداً، تماماً كما توقّعت روبين.

"سيد دا سيلفا،" قلتُ مقاطعاً، "هذه مسألة حيوية بالنسبة للعراقيين، علينا أن نحرّك عجلة الاقتصاد، وشراء المحصول طريقة جيدة لضخّ بعض الأموال سريعاً بين أيدي الناس.

"ولكن، سعادة السفير،" قال، "إن أموال برنامج النفط مقابل الغذاء هي ملك الحكومة العراقية، ولا يمكنني التصرف بها من دون موافقة حكومتهم."

"أنا الحكومة العراقية، في الوقت الراهن،" أجبت. "وباسم الحكومة العراقية أطلبُ من الأمم المتحدة أن تحرر هذه الأموال على الفور."

أحدُ زملاء دا سيلفا غيّرَ وجهة النقاش. "إن برنامج شراء الحبوب هو مسؤولية وزارة التجارة العراقية. و لا نعلم موقف الوزارة من الموضوع."

كنا قد توقّعنا هذا الجدل. روبين، التي بدت متحفّزة، قالت، "بصفتي مستشارة رئيسية الوزارة، أنا هنا لأخبرك بأننا نريد ذلك أن يحصل، وبسرعة."

كنا قد أكّدنا أن قوات التحالف هي المسؤولة الآن، وهي تحتاج لمساعدة الأمم المتحدة. بعدها، غادرنا قاعة المناورة الصغيرة للأمم المتحدة.

ومن أجل أن نختم الصفقة، نهضتُ وصافحتُ يد دا سيلفا. "رجال الصحافة ينتظرون في الخارج. لماذا لا تأتي معي وتقول بضع كلمات؟"

من خلف حاجز المدخل الرئيسي، أعلنتُ عن بياني للصحافة: يسعدني أن أعلن بأن الأمم المتحدة مستعدة أن تنفق المزيد من أموال الشعب العراقي على حاجياتهم الملحّة من خلال الموافقة على استخدام عائدات برنامج النفط مقابل الغذاء لشراء محاصيل الحبوب. سوف تبدأ المشتريات الأسبوع القادم. وقف دا سيلفا صامتاً بجانبي، تعلو وجهه ابتسامة مشدودة.

وبدأنا نشتري الحبوب الأسبوع التالي.

في ذلك المساء، عقدتُ اجتماعاً مرتجلاً، تاريخياً، آخر مع كلاي وهيوم. بدأ الاجتماع حين ناولني هيوم نسخةً من إحدى الصحف العراقية الجديدة، غير المراقبة، التي كانت بدأت تظهر في بغداد، خلال أوّل انبثاق للحرية بعد التحرير.

"يسمّونك (ماك آرثر بغداد) يا جري،" قال بابتسامة صغيرة. "أين هو غليونك؟"

كانت مهمّتي الجديدة تجمعُ بعض مسؤوليات الجنرال دوغلاس ماك آرثر، الحاكم الفعلي في اليابان الإمبريالية، بعد الحرب العالمية الثانية، وبين الجنرال لوسيوس كلاي، الذي قاد الاحتلال الأمريكي لألمانيا النازية المهزومة.

كانت الحرارة في المكتب الصغير خانقة، والمروحة الأرضية الموصولة إلى المولّد لم تكن لها فعالية تُذكر. "لا أظن أن الحرارة كانت بهذه الشدة في طوكيو أو برلين،" قال كلاي. ما إن بدأ الظلام يزداد حلكة، سمعنا طلقات نارية لأسلحة خفيفة تأتي من الضفة الأخرى للنهر.

"سوفُ أرضى بمشاكل ماك آرثر،" أجبتُ. "لم تكن الأوضاع بالنسبة له بهذا التعقيد."

وعلى قنينة ماءٍ فاتر، رحنا نقارن فترات الاحتلال بعد الحرب العالمية الثانية بالتحدي الذي نواجهه.

مع قدوم عام ١٩٤٥، كانت الولايات المتحدة قد أمضت أكثر من ثلاث سنوات تخطط لفترة الاحتلال، بعد الحرب. وبالرغم من أنّ المدن اليابانية والألمانية كانت قد تعرضت للتدمير، غير أنّ الحكومة الأمريكية كانت قد أنجزت خطة مفصّلة لما بعد الحرب، إلى حدّ تجميع مقطورات نقل خاصة مع أجزاء دواليبها الصحيحة، لضمان سيرها على سكّة حديد أجنبية. في العراق، حاولت قوات التحالف تجنّب التدمير الواسع للبنية التحتية، وإيقاع ضحايا مدنيين. غير أنّ سرعة الحرب لم تترك لنا وقتاً كافياً للتخطيط لما طرأ من تململ اجتماعي، لاحقاً، في الوقت الذي تسبّب فيه سوء الإدارة المزمن، وعلى مدى عقود، ترك الاقتصاد العراقي في حالة مزرية.

لم تكن للولايات المتحدة سفارة في العراق، منذ ما يزيد على عقد. ناهيك عن أنّ الإحصاءات الاقتصادية، المتوفرة بشكل طبيعي في المجتمعات المتفتحة، كانت تعتبر من أسرار الدولة في عراق صدام. في هذا الصدد، كان العراق يحذو حذو نموذج الاتحاد السوفيتي السابق، الذي انفجر من الداخل، في الوقت الذي كان البعض، في الغرب، لا يزال يعتقد بأن ثمة نقاط قوة كامنة في نظامه الاقتصادي.

وحيث كنا نتحدثّ في المساء الهابط تدريجياً، ناقشنا الاختلاف النفسي والسياسي الجوهري في هذا الاحتلال. مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة والحلفاء الآخرون، قد ألحقت بوضوح هزيمة بالدول التي احتلّتها. كانت الأمتان، اليابانية والألمانية، قد استُنفرتا بالكامل لخوض حرب طويلة، قاسية. لكنهما، في النهاية، خسرتا واستسلمتا.

"ربما لم يكن الألمان واليابانيون يحبون أن يكونوا تحت الاحتلال،" قال هيوم، "لكنهم كانوا يعرفون أنّ الاحتلال هو ما يحدث حين تخسر حرباً."

"ولكن هنا،" قلتُ، "نحن هزمنا نظاماً مكروهاً، وليس بلداً."

يتبع